الحرية الدينية
بين التوحيد والوثنية

التعريف بالحرية الدينية

الحرية الدينية أو حرية الاعتقاد أن يكون للإنسان الحق فى اختيار ما يؤديه إليه اجتهاده فى الدين، فلا يكون لغيره حق فى إكراهه على ما يعتقده بوسيلة من وسائل الإكراه، وإنما يكون له حق دعوته إليه بالإقناع بدليل العقل، أو بالترغيب فى ثواب الآخرة والتخويف من عقابها، وهذا لا يكون إلا بعد إقامة الدليل على أن هناك إلهًا قادرًا عالمًا حكيما يريد الخير للناس فى دنياهم وأخراهم، ويبعث لهم رسلا يدلونهم على الخير الذى يريده لهم، رحمة بهم، وفضلا وكرمًا تكرّم به عليهم، لأن هذا هو الذى يليق بكماله بعد خلقه لهم، فلو أنه تركهم سدى بعد خلقه لهم لكان هذا غير لائق بكماله وحكمته، ولكان خلقهم عبثًا تتنزه عنه ذاته.

وبهذا يدخل فى الحرية الدينية حرية الدعوة إلى العقيدة، وحرية تبليغ رسالته تعالى للناس، ولا تقتصر على حرية اعتقاد المرء فى نفسه، لأن من يرى رأيًا فيه خير للناس فى دنياهم وأخراهم له حق دعوتهم إليه، بل يكون آثمًا إذا كتمه عنهم ولم يبلغه إليهم، ولم يعمل على نشره بينهم، ليبادلوه الرأى فيه، فإن كان خيرًا أجابوه إليه، وإن كان شرا دلوه على ما فيه من شر، دليلا بدليل، وإقناعًا بإقناع، من غير أن يكون هناك سعى فى فتنة تثير حربًا بين الناس، وتعمل على تفريق كلمتهم ونشر العداوة بينهم، فيصل الأمر بها إلى استحلال سفك الدماء، ومثل هذا ليس من الحرية فى شىء، وإنما الحرية دعوة سلام بين الناس، ورسالة إخاء ووئام بينهم، فلا يصح أن يصل أمرها إلى ما يضاد دعوتها، فتنقلب

من دعوة سلام إلى دعوة حرب، ومن أخذ الناس بوسيلة الإقناع إلى أخذهم بوسيلة الإكراه، وبهذا لا تكون حرية وأمنًا وصلاحًا، بل تكون استبدادًا وتخويفًا وفسادًا.

وإذا كنا بهذا نعطى للإنسان حق حرية الاعتقاد، وحق الدعوة إليه وتبليغه للناس، وإذا كنا أيضًا نحرم عليه اللجوء فى دعوته إلى وسائل الإكراه، ونوجب عليه الاقتصار على وسيلة الإقناع، فإنا نعطيه مع هذا حق الدفاع عن عقيدته إذا أريد فتنته عنها بالقوة، ليقابل القوة بمثلها عند القدرة عليها، ويدافع بقوته عن عقيدته من يريد فتنته فيها بقوته، وهذا حق طبيعى فيه تأييد للحرية الدينية عند الاعتداء عليها، لأن حق الدفاع عن العقيدة مثل حق الدفاع عن النفس، وهذا لأن عقيدة الإنسان جزء من ذاته، بل هى أثمن عليه من نفسه، فيكون حق الدفاع عنها أوجب من حق الدفاع عن النفس، ولهذا يستهين كثير من الناس ببذل نفوسهم فى سبيل الدفاع عن عقيدتهم، وفى هذا أكبر دليل على أن عقيدتهم عندهم أثمن من نفوسهم، لأن العقيدة فيها سعادة النفس فى دنياها وأخراها، ولا قيمة للنفس بدون هذه السعادة.

الحرية الدينية بين التوحيد والوثنية

التوحيد والوثنية :

التوحيد دين الله الذى يأمر بعبادته وحده دون غيره من الآلهة التى يقيمها طغاة البشر من أنفسهم أو غيرها مما يمكن معه استعبادهم لهم واستبدادهم فيهم.

والوثنية دين طغاة البشر الذى يأمرهم بعبادتهم أو عبادة أوثانهم ليمكنهم استعبادهم وتطويعهم لاستبدادهم.

وبهذا يكون التوحيد دين الحرية، وتكون الحرية الدينية فيه موفورة للناس جميعًا، لأن الله تعالى يفرض عليهم دينه رحمة بهم، ويرسل رسله به إرادة لخيرهم فى دنياهم وأخراهم، وهو فى هذا مستغن عن عبادتهم له، ومستغن عما فيها من صلاة وصوم وزكاة وحج وغيرها من أنواع العبادات، وإنما هى وسائل لمقاصد يعود نفعها عليهم، وما يكون فيها من ثواب أخروى فهو بفضله وكرمه لا بعبادتهم وأعمالهم، وما يكون عليها من عقاب أخروى فإنما يراد منه زجرهم عما فيه فسادهم، وليس فيه شىء من شهوة الانتقام التى تتنزه عنها ذاته ويتنزه عنها كماله عن كل نقص فى البشر.

وحينئذ تقوم الدعوة فى دين التوحيد على أساس الترغيب فى الثواب والترهيب من العقاب فى الآخرة، وليس فيهما شىء ينافى الحرية الدينية، وإنما فيهما هذه الدعوة الحرة ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

[الآية ٤٦ من سورة فصلت] فمن شاء أخذ نفسه بالعمل الصالح فأحسن إليها، ومن شاء أخذ نفسه بالعمل السيئ فجنى عليها، وليس لأحد فى الدنيا إكراهه على عمل من الأعمال الصالحة بعقاب من عقاب الدنيا، اللهم إلا إذا كان تركه يضر بغيره فيها، وليس لأحد إكراهه على ترك عمل من الأعمال السيئة بعقاب من عقاب الدنيا أيضًا، اللهم إذا كان فعله يضر بغيره فيها، كالقتل والسرقة ونحوهما، لأن إكراهه على هذا بعقاب من عقاب الدنيا يرجع إلى ما فيه من مصلحة الناس فيها، وليس فيه شىء من الاعتداء على الحرية الدينية.

أما الوثنية فإنها تكون دين الاستعباد والاستبداد من طغاة البشر لضعفائهم، ولا يكون فيها شىء من الحرية الدينية، لأن هؤلاء الطغاة يفرضون عبادة أنفسهم وأوثانهم على الناس، ولا يملكون من ثواب الآخرة وعقابها شيئًا، بل لا يريدون أن يعرف الناس شيئًا من ثواب الآخرة وعقابها، لئلا يتطلعوا إليهما دونهم ودون أوثانهم، وقد يعتقد بعضهم بثواب الآخرة وعقابها ولكنهم يجعلون أنفسهم وأوثانهم الوسيلة إلى الفوز بهذا الثواب وإلى النجاة من هذا العقاب، ليرضى الناس بعبادتهم وعبادة أوثانهم، وليخضعوا بها لاستبدادهم فيهم، وهم يعرفون فى قرارة نفوسهم عجزهم عن هذه الوسيلة، وإنما هو استغفال لجهل العامة، واستغلال لضعفها بإزاء قوتهم.

وحينئذ لا يملكون فى حمل الناس على عبادتهم وعبادة أوثانهم إلا ما يملكون من عقاب الدنيا، فيأخذون الناس إلى عبادتهم بوسائل الإكراه، ويعملون على استدامة عبادتهم لهم بحرمانهم من نور العلم، وبحرمانهم من وسائل الحياة الكريمة، وبنشر ظلام الجهل فى ربوعهم ليرضوا بما هم فيه من الفقر المدقع، وبما فى أجسامهم من الأمراض المضنية، ولا يعملوا على التخلص من هذه الآثام التى تستلزمها عبادتهم

لهم، ويستلزمها استبدادهم فيهم، ومثل هذا يدخل فى الاعتداء على حقهم فى الحرية، ولا ينقص شيئًا عن الاعتداء عليها بحرب أو نحوه.

بين نوح وطغاة الوثنية:

كان نوح عليه السلام أقدم الأنبياء بعد آدم عليه السلام، وقد أرسله الله بعد أن طغى الفساد فى الأرض، وقام فيها طغاة البشر يستعبدون ضعفاءهم، ويتخذونهم عبيدًا لهم ولأوثانهم من دون الله تعالى.

فدعا نوح قومه من طغاة وغيرهم إلى عبادة الله وحده، ليرفع بها من شأن أولئك الضعفاء، ويزيل عنهم ما هم فيه من جهالة وشقاء وعناء، ولم يسلك أولا فى دعوته لهم إلا سبيل الإقناع، فاستجاب لدعوته أولئك الضعفاء، وكبر على طغاتهم أن يستجيبوا له، وكبر عليهم أن ينقذ أولئك الضعفاء من استعبادهم لهم ولأوثانهم، وأن يحررهم من استبدادهم فيهم، وطلبوا منه أن يتركهم لهم، ليعيشوا تحت سيطرتهم واستبدادهم.

فأبى نوح أن يتركهم لهم بعد أن آمنوا بدعوته، واكتفى بمن آمن به من الضعفاء، وترك أولئك الطغاة على ما هم عليه بعد أن بلغهم دعوته، لأن لاإكراه في الدين، كما قال تعالى على لسانه فى الآية - ٢٨ - من سورة هود ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ فأبوا إلا أن يترك لهم أولئك الضعفاء، وإلا أن يطردهم عنه لهم، وأخذوا يعتدون عليه وعليهم فى أنفسهم وفى أموالهم، وأخذوا يكرهونهم على الرجوع إلى وثنيتهم، ولا يقدرون ما أخذهم به نوح من حقهم فى الحرية الدينية، ليأخذوه بحقه فى الحرية الدينية أيضًا.

فهناك أنذرهم نوح بطوفان يرسله الله عليهم فيغرقهم به إن لم يتركوه هو ومن آمن به، وكانوا قلة لا تذكر بينهم، ولا قدرة لهم عليهم، فلا يكون

لهم إلا قدرة الله التى هى أقوى منهم، وقد عاقبهم الله بهذا الطوفان بعد أن أبوا إلا الاستمرار فى الطغيان، ونجىٌ منه نوحًا ومن آمن به من ضعفائهم.

بين إبراهيم وطغاة الوثنية :

أرسل الله إبراهيم عليه السلام إلى طغاة قومه من النماردة الذين استعبدوهم وادعوا الألوهية فيهم، وأقاموا لهم أصنامًا من الحجارة يعبدونها معهم، وكانوا يعبدون معها الكواكب من الشمس والقمر والنجوم أيضًا، ليستقيم لأولئك النماردة دعوة الألوهية، لأن من يرضى بعبادة مالا يعقل يرضى بعبادة من يعقل من باب أولى، وبهذا يرضخ الناس لطغيانهم واستبدادهم فيهم؛ وبما يأخذونهم به من وسائل الظلم والعسف؛ ويرضون بما يعيشون فيه من جهل ومرض وذل.

فأخذ إبراهيم يدعو نمرود عصره إلى عبادة الله تعالى؛ ويبطل له دعواه الألوهية لنفسه بوسائل الإقناع؛ كما جاء فى الآية - ٢٥٨ - من سورة البقرة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾

ثم أخذ يبين فساد اتخاذهم للكواكب أربابًا بوسائل الإقناع أيضًا كما جاء فى الآيات — ٧٦؛ ٧٧؛ ٧٨ — من سورة الأنعام: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ الآيات؛ فلجأ بهذا وذاك معهم إلى وسائل الإقناع بالدليل العقلى؛ فمن شاء اقتنع به ومن شاء لم يقتنع؛ وهذه هى الحرية الدينية بأوسع معانيها: لأنها هى التى تكتفى فى الدعوة بالدليل العقلى ونحوه من الأدلة التى تأخذ الناس إلى الإيمان بها من غير إكراه.

ولما لم ينفع فيهم الدليل العقلى لجأ معهم إلى دليل حسى يكون أقوى تأثيرًا فيهم؛ والدليل الحسى من الدليل العقلى أيضًا؛ ولا يمتاز عنه

إلا بأنه يعتمد على الحس مع العقل؛ أما الدليل العقلى فإنه يعتمد على محض العقل؛ وقد استعان بهذا الدليل الحسى مع أصنامهم؛ لأنها كانت فى متناول يده؛ وفى إمكانه أن يفعل فيها ما يدل حسًا وعقلا على أنها ليست بآلهة.

فاحتال فى خفية منهم حتى انفرد بأصنامهم فى بيت عبادتها؛ ثم أخذ فى تكسيرها حتى جعلها جذاذًا إلا صنما كبيرًا تركه ليستعين به فى دليله؛ ولا يجاوزه إلى الأخذ بشىء من العنف معهم؛ لأن العنف لا ينفع مع الطغاة بل يزيدهم طغيانًا على طغيانهم.

فلما ذهبوا إلى أصنامهم وجدوها جذاذًا إلا ذلك الصنم الكبير. وأخذوا يبحثون عمن فعل هذا بها، فاتهموا إبراهيم به لأنه هو الذى يطعن فى عبادتهم لها، ثم أحضروه ليسألوه عمن فعل هذا بها قبل الصنم الكبير الذى بقى من غير كسر؛ فكاد بعضهم يصدقه فيما ذكره من ذلك؛ وكان قد أمرهم أن يسألوها عمن فعل هذا بها إن كانت تجيب عن سؤالهم؛ فقالوا له: (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)[1]؛ وهنالك أنكر عليهم عبادة ما لا يدفع عن نفسه شيئًا؛ ولا ينفعهم شيئًا ولا يضرهم.

ولاشك أن إبراهيم لم يجاوز فى الدعوة إليهم بهذا كله حد الإقناع ولم يأخذ إلى الإيمان بدعوته بوسيلة من وسائل الإكراه؛ وإذا كان قد كسر أصنامهم فقد فعله فى خفية تلطفًا منه فى الدعوة؛ ولما سألوه عمن كسرها لم يجبهم بأنه هو الذى كسرها ليمضى معهم فى هذا التلطف، ولكنهم أسندوا إليه كسرها استنتاجًا من إنكاره عبادتهم لها.

---

(١) ى ٦٥ س ٢١ الأنبياء.

ولاشك أن إبراهيم لم يكن ليعمد إلى مثل ما فعله بعد أن رآه لم يفد فيهم أيضًا، وحينئذ لم يكن منه إلا أن تركهم وما يعبدون بعد أن بلغهم دعوته، لأن الله تعالى لم يكلفه إلا بتبليغ هذه الدعوة، وكان عليهم أن يتركوه حرا فى دعوته كما تركهم فى وثنيتهم، ولكن الوثنية دين طغيان يأبى إلا أن يأخذ الناس بوسائل القوة، فتآمروا فيما بينهم أن يحرقوه إن لم يترك دعوته إلى وثنيتهم، ولكن الله تعالى نجاه من النار التى أوقدوها له، فلم يكن منه إلا أن هاجر منهم إلى فلسطين، وكان له بها من الشأن ما كان.

بين موسى وطغاة الوثنية :

أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وكان قد طغى فى الأرض، وادعى لقومه أنه ربهم الأعلى، فاتخذوه إلهًا لهم مع أوثانهم، وكان بنو إسرائيل قوم موسى قد هاجروا فى عهد يوسف عليه السلام إلى أرض مصر، فاستعبدهم فرعون فيمن كان يستعبدهم، وخصهم بفرط ظلمه وطغيانه، فأرسل الله إليه موسى ومعه أخوه هارون ليدعواه أولا إلى الإيمان به تعالى، وثانيًا إلى أن يترك لهما بنى إسرائيل ليذهبا بهم إلى الأرض المقدسة التى هاجروا منها إلى مصر، ويتمتعوا فيها بنعيم الحرية التى سلبها منهم، وكاد يدخلهم بالقهر فى وثنية قومه، وبهذا سلبهم الحرية السياسية والدينية معًا، وزرع فى نفوسهم كثيرًا من الرذائل الوثنية التى مكثت آثارها فيهم بعد أن نجاهم الله تعالى منه، ففسدت بها نفوسهم ولم تبق على طهارتها الأولى، ولا تزال فاسدة إلى يومنا هذا.

ولما أرسل الله موسى وأخاه هارون إلى فرعون أمرهما أن يأخذاه بما لا يخرج بهما عن حد الحرية الدينية فى الدعوة، كما جاء فى الآية - ٤٤ - من سورة طه ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ وهذه هى الدعوة بالتى هى أحسن، وهى الدعوة بالإقناع والدليل،

لا بوسائل القوة والإكراه، فأخذاه بالدعوة فى هذا الحد، ولكنه أبى وطغى واستكبر، ولم يستجب لهما فى الإيمان بالله تعالى، ولا بإرسال قومهما بنى إسرائيل معهما إلى الأرض المقدسة التى وعدهم الله بها، ولم يؤثر فيه ما أيد الله بن موسى من معجزة العصا وآيات العذاب الدنيوى، لأن الله تعالى كان يرسل آيات العذاب عليه للموعظة والزجر، لا لأخذه إلى الإيمان بالقهر، فكان يرسلها إليه ثم يكشفها عنه، ولا يتركها مستمرة حتى يؤمن بها قهرًا عنه.

وحين يئس منه موسى أراد أن يتركه ووثنيته، لأنه قد قام معه بما كلف به من تبليغ رسالته، وإنما وظيفة الرسل التبليغ لا أخذ الناس إلى الإيمان بالقوة والإكراه، فلم يكن من موسى إلا أن أسرى ببنى إسرائيل ليلا من مصر، وسار بهم إلى الأرض التى وعدهم الله تعالى بها، فلم يشأ فرعون أن يتركهم كما تركوه، لأن الوثنية الطاغية تأبى إلا أن تأخذ الناس بالإكراه، وإلا أن تجحد حقهم فى الحرية الدينية، وقد أدرك فرعون وجنوده موسى وقومه فى عبورهم البحر إلى الأرض الموعودة، فمكن الله تعالى لموسى وقومه أن يعبروا هذا البحر، وأغرق فيه فرعون وجنوده عقابًا لهم.

بين عيسى وطغاة اليهود والرومان :

أرسل الله عيسى عليه السلام إلى قومه بنى إسرائيل بعد أن أفسدوا فى الأرض المقدسة التى كتبها لهم فعاقبهم على فسادهم بتسليط طغاة الاستعمار عليهم، وكانت رسالة عيسى إليهم فى عهد الاستعمار الرومانى لبلادهم، ولم تكن رسالته إلا لتطهير نفوسهم من رذائل الوثنية التى علقت بها وانحرفت بهم عن الطرق القويمة فى علاقتهم بربهم، وفى علاقتهم بغير جنسهم من أجناس الأرض، إذ جعلوا جنسهم فوق جميع الأجناس،

وجعلوا دين الله ميزة لهم لا يشاركهم فيها غيرهم، واستحلوا بهذا أكل أموال الناس بالباطل، فانتشروا فى الأرض لنهبها بالربا الفاحش وغيره من وسائلهم، ولا يزال هذا شأنهم إلى يومنا، مع ما حل بهم من أنواع المسكنة والذلة، لأن قلوبهم كالحجارة أو أشد قوة، فلا يؤثر فيها مصيبة تصيبها. ولا تأخذ منها موعظة تنفعها فى دنياها، وإنما هو المال والحرص عليه إلى حد العبادة له، وإلى حد استغلاله فى نشر الفساد بين الأجناس انتقامًا لما أصابهم منها. وتمهيدا لمسيحهم المنتظر الذى يسلطهم عليها.

فأخذهم عيسى بالحسنى، وقابل إساءتهم بالإحسان، وكانت شريعته تأخذ بإيثار العفو والصفح على مقابلة العدوان بالعدوان، حتى قال فى هذا قولته المشهورة - من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر - ولهذا أغضى عن الرومان واستعمارهم القاسى لقومه، وقد سأله بعضهم عن جزية قيصر عليهم يؤدونها له أو لا يؤدونها؟ فقال لهم: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله. لأنه كان يرى أن يصلح نفوس قومه أولا، ومتى صلحت نفوسهم أنقذهم الله من استعمار الرومان وغيرهم.

ومكث عيسى فى حدود الدعوة التى لا افتئات فيها على الناس فى حقهم فى الحرية الدينية، ولكن اليهود لم يطيقوا منه هذه الدعوة التى لا افتئات فيها على حريتهم، وأرادوا أن يثنوه عنها بالإكراه، وأن يأخذوه بوسائل الوثنية فى القضاء على الحرية الدينية، فقدموه إلى الحاكم الرومانى ليصلبه بتهمة الإفساد فى الأرض، وقد استجاب طاغية الرومان لهم فأخذه منهم ليصلبه، وهو اعتداء منهم جميعًا على ما كان له من حق فى تبليغ دعوته بمقتضى حق الحرية الدينية، وهو حق مقدس لا يصح الاعتداء عليه أصلا.

بين محمد وطغاة الوثنية من العرب :

وكذلك كان شأن محمد ﷺ مع طغاة الوثنية من العرب، فلم يكن يريد إلا أن تكون له الحرية الدينية فى تبليغ دعوته، فأباها عليه هؤلاء الطغاة، واستعملوا كل قسوة معه ومع من آمن به لفتنتهم عن دينهم، مع أنه كان يقتصر على تبليغهم دعوته، ولم يحاول إكراههم عليها بوسيلة من الوسائل، وإنما أراد الحرية الدينية له ولهم، كما قال تعالى فى متاركتهم من الآية - ٦ - من سورة الكافرون ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ وقد صبر عليهم ما صبر إلى أن صار له أتباع يمكنهم ان يدافعوا عن انفسهم، وأن يدافعوا عن دينهم من يقاتلهم ليردهم عنه، كما جاء فى الآية — ٢١٧ من سورة البقرة ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ ﴾ فأذن له فى قتالهم دفاعا عن دينه، ومثل هذا لا يعد إلا قتالا فى سبيل الحرية الدينية، وجهادا مقدسا لرفع أعلامها فى العالم، ونستطيع أن نحكم بأنه أول جهاد من نوعه فى تاريخ البشر.